(١٤)

عَربي
من كان وجها لي
قل جاء الحق

حديث الجمعة

١٩ شوال ١٣٨٢ هـ - ١٥ مارس ١٩٦٣ م

الحمد لله، لا تحصى نعمه، ولا تنقضي آلاؤه.

الحمد لله، لا تغيب صلته، ولا ينقضي قربه.

الحمد لله، الذي لا جديد فيه، ولا شريك له.

الحمد لله، الذي لا يغيب حقه، ولا ينقضي عن التواجد في الأرض عبده.

الحمد لله، الذي تتواصل رسالته، ولا ينقضي عن عباده هديه، ولا تغيب عن عاقل حكمته.

الحمد لله، الذي هو لا إله إلا الله، والله أكبر.

الحمد لله، الذي تتمثل في ذات الحياة ذاته، وفي استقامة الحياة صفاته.

الحمد لله، الذي هو روح الحياة، وروح القيومية على الحياة، وروح لانهائي الحياة. يظهر للروح بالروح الأعظم، ويظهر للذات بالذات الأقدس والأقوم والأكرم.

الحمد لله، الذي جعل من الإنسان مظهره، وحمل الإنسان إلى الإنسان خبره، وجعل من الإنسان للإنسان ذكره، وأقام بالإنسان على الإنسان أمره.

الحمد لله، الذي هو قوام العبد، قبل أن يكون قوام الرب، وقبل أن يعرف لهما بهما بالإله.

الحمد لله، الذي هو العبادة، والعبد والمعبود، والذي هو الشهادة، والمشاهد، والمشهود.

الحمد لله، الذي هو كل شيء لمن عناه والذي هو كل شيء لمن تولاه.

الحمد لله، محمودا من نفسه، لنفسه، بنفسه، في نفسه، في الإنسان.

نشهد أن لا إله إلا الله، على ما شهدها عبده ورسوله، ونشهد أن الله أكبر على ما عرفها كل عارف به، وكل حق منه، وكل أمر له.

عباد الله.. كونوا عبادا لله بتجديد سفينة أنفسكم بالصلاة، وكونوا من المصلين بصلتكم بالمصلين، وكونوا من العابدين بوصلتكم بالعابدين، وكونوا من الأحياء بقيامكم بالأحياء في الحي القيوم، في المنفرد بالحياة، ومفيضها على الأحياء ممن استحيوه، وقد طلبوه على ما طلبهم، ونادوه وقد ناداهم، فوجدوه فيما أوجدهم، فعرفوه بمعرفتهم لأنفسهم منه، له وجوه، وبه عباد، وبخدمتهم وإيثارهم، لبيوتهم أرباب عرفوهم قلوبهم حية به فعرفوه، حياتهم اهتدوه واقتدوه، عقولهم نوره، فأشعلوا جذوة الحياة شموسا لها، ومصابيح وجود.

نفوسهم شرفوه عبادا له يوم عرفوهم مكانه وزمانه، وعينه وعنوانه.

وحدوه فتوحدهم، وعشقوه فأشهدهم، وشهوده كانوه فأشهدوه، فكانوا به الإنسان، العنوان، العالم، المكان، الدهر والزمان.

ينشغل الإنسان بدنياه من نفسه في دناه عن دينه ومعناه، يتوهم الإحسان وهو الغافل عن العنوان، في معناه، في مبناه، في مسراه، في أطواره ومرتقاه. كيف يبدأ الإصلاح ممن لم يصلح؟ وكيف يبدأ فلاح ممن لم يُفلح؟ وكيف تبدأ حياة ممن لم يحيا؟

إن أول العابدين، إن أول الحق، إن أول الخالق في صوره الخلق، إن أول الخلق من دائم الخالق، في معناه الأزلي وجديده الأبدي، كان لنا فيما نعلم العبد العربي، كان النبي العربي، كان الرسول العربي، كان الأمين العربي، أنانية من عرا به عبدا له، وقائم الحق فيه وجها له، كان للناس به رسولا منه وقدوة لهم أول عنوان لأزلي عنوان للإنسان قام للناس، وكان أبدي عنوان لمن أحسن ووعى ما تلقى من البيان. كان أشرف بنيان لمظهر إنسان. كان نُصب الإيمان، وذات الإحسان، آدم أوادمه، وأصل معالمه، وأول مرائيه، وبداية مبانيه، وبدء تكاثره، وجماع تناثره. كان الأصل للظلال والأرض للجبال، وكان البحر للأنهار، وكان النهر للجداول، وكان الحوض للكؤوس. كان الدين، كان عنوان الحق وعنوان اليقين، وُعِدنا به لا يغيب، وعُرِّفنا به لا ينقطع، عرفناه المعاد ممن فرض عليه الكتاب، عرفناه المكلف ليتلوه على مكث، عرفناه المجاهِد لا عوج له ليبينه في دوام قيام. لسانه عن البيان لا يتوقف بحار كلامه، ويده للناس تمتد أمة إعلامه، ووجهه عنهم لا يغرب شمس قيامه. يصبر نفسه متكاثرا، متجددا في نفوس قومه، وما قومه إلا الناس جميعا، لا تعدو عيناه عن من يطلب وجه الله،

ينزل الروح من أمره على من يشاء من نفسه عبادا لمولاه وربه عين ذاته ومعناه، ربا لا يدين وعبدا لا يتعالى، ويد نجدة لا تحجم، ونظرة رحمة لا تضيق ولا تبخل، وماء حياة متدفق لا يتوقف. ذلك من عرفناه ابن عبد الله، وهو عين عبد الله وابن عبد الله حقا، وعبد عباد الله، ورب عباد الله، من شرفت العبودية لله بشرفه، بوصف العبد له، من شرفت الربوبية برحمة الله في شرفه رحمة للعالمين. جعل السيادة للإنسان يوم يسود الإنسانُ الإنسان على نفسه، ويوم يجعله في خدمة الناس من الإنسان، وقد خفض جناح الذل لهم وهو العزيز بعزة ربه، وبعزة عطائه، وبعزة المؤمنين به لتتسع رحمة الله لهم، ولتعم رحمة الله به وبهم.

إن كان للعرب شرف، فبمن عرا بالحق عربيا، ومن نطق بالهدي هديا عربيا، ومن جمع لبنات الحق من الإنسان أمة عربية، ومن أبرز أمر الله فائتمر الناس بأمر الله، أمة بدأها أمة عربية...

فشرف العربي فردا بشرفه، وشرفت الأمة العربية جمعا بالاجتماع عليه، والصلة به، والذكر له، والتواصي بالحق معه، وشرفت البشرية يوم امتد فيها شرف متابعته، وشرف مصاحبته، لا شرف لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، فتكشف أمر الله فيمن جانبه، وقضاؤه فيمن عاتبه...

فَعَلَت كلمة الله به، وعلا أمر الله بكلمته، وانتشرت رحمة الله بشعبه المختار بأمته، وزويت له الأرض فعمت رحمته، واجتمعت على الحكمة أمته فكان هو الناس جميعا، بحقيته احترقت شمس ذاته لتشعل مصابيح قلوبهم في مشكاة صدورهم، باخعا نفسه على آثارهم، مستعينا بربه وبهدي السابقين عليه من إنسان قديمه، به وبهم اقتدى، وباقتدائه أبرز نفسه قدوة للعالمين، وشرفا لدين القيمة من المؤمنين ممن يقيم الله، وممن يهدي بهم الله، وممن يفعل بهم الله، فكان عباد الرحمن يمشون على الأرض هونا، وفي كل مكان لا مكان لهم، وفي كل زمان لا زمان لهم، بدور تناثره، وعناوين تكاثره، ومعايير نوره، وأحواض سكينة بشريته.

بنور الله له أُنزل معه أصبح الناس جميعا وقد تجددت الحياة به رحمة للعالمين، وأصبح الناس به شموس الدلالة عليه من كانت لهم دلالة بشمسه على شمس سبقه في إنسانية حقه، عنوان ربه، وعبد إلهه، ورفيق نوره، وأخوة روحه، ومظهر الأعظم من روح الله له، علما على لانهائي روح الحياة، من جعل من الإنسان بما أقامه ربه، وبما شرَّفه إلهه، وبما عنونه من روح الحياة المطلق بوصف الوجه له، كائنا يعتز بوصف العبد له عن وصف الرب لمعناه، وعن وصف الإله لحكمته وكنزيته إنكارا لذاته وقياما لصفاته.

جعله الله للناس ورضيه للناس يوم ارتضاه لنفسه، وارتضى به الناس لنفسه، يقوم ويتقلب في الساجدين.

منه تبدأ الحياة، ومنه يبدأ الصلاح، ومنه يبدأ الخير، ومنه يبدأ الروح، ومنه يبدأ الفلاح، {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم}[1]، لا يتوقف فعله بجديد، ولا يتوقف جديده عن الظهور بمزيد، ولا يتوقف مزيده عن البشرى بمرجو مأمول. كان سنة الحياة، وقانون الحياة، ومظهر الحياة، وقائم الحياة، وقيوم الحياة، قل جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا. إن الباطل في دوام يزهق ويُزهق، وإن الحق في دوام يقوم، ويتجدد، ويأتي. يأتي بقيامه، ويظهر بسلامه، ويعرف في أعلامه.

ها هو الرسول على ما وعد، وها هي السماء على ما بشرت ودعت، ها هي السماء برجعها، وها هي الأرض بصدعها، ها هي السماء تنشق بجديد، وها هي الأرض تنشق من الجنس بوليد، ها هي الأرض في المخاض، وها هم الناس يتخلون عن العناد، ويتجمعون في طلب الوداد استنهاضا للإيمان، وبعثا للإحسان، وإعدادا للجهاد، وقياما للرشاد، وذكرا لله بأمسهم ما أَمنوه، وفي يومهم ما ذكروه، ولغدهم ما رجوه، ولكنه لأمسهم قام غفورا وغفر، ولحاضرهم قيوما رعى وذكر، ولقابلهم عزيزا حكيما تولى، ولنفسه شكر، وقد اعتزم بهم أمرا، وأراد بهم إرادة. وجعلهم عنده أحرارا وأهل سيادة بمن عرا بينهم بالحق عربيا، حرا ربانيا، رسولا رحيما رحمانيا، جعل الله قدرته في قدرته شديد القوى، وجعل قيادته في حكمته مسدد الخطى، وجعل تطوير خلقه في متابعته رحمة للعالمين، وجعل إبراز حكمته في إظهاره برشاده، وسلامه في قياده.

رسول الله.. ها نحن نرى، ها نحن نشهد، ها نحن نقر أن كل ما ينالنا من الخير، إنما هو من فيض يديك، وأن كل ما ينالنا من الحياة، إنما هو من فيض عينيك، وأن كل ما نوفق إليه إلى اجتماع واستلال لسخيمة، إنما هو من فعل نفسك بيننا، ومن قيامك علينا، ومن رضائك بنا على عيوبنا، لا تدين ولا تسأل، ولا تعتب ولا تسأم، لا تخاصم ولا تقصم، تحب ولا تكره، عن الفعل لا تتوقف، تجمعنا بيديك، وتحيينا بإرادتك، وتستل من قلوبنا سخائمها بقدرتك...

عبد الله وشرف العبد له، رسول الله وبيان القيام به، نور الله للسموات والأرض، قبضة نوره من مطلقه لا يحد، بك قدرناه، وبك وحدناه، وبك عرفناه، وبك في أنفسنا شهدناه، وبك ذكرناه، وبك عبدناه فكفاه بلا إله إلا الله.

رسول الله.. إن مزيدا ننتظر، وإن كبيرا من الأمل لنا نراه يتحقق، في واسع من الرجاء نترقب، وأنت لذلك رسول الله أهل وعليه قادر بوصلتك بربك، وبمحبة إلهك...

إنا إذ نذكرك إنما نذكر الله، لا يتعدد. إنا إذ نذكرك نذكر ربنا قديما قائمًا في جديدنا وقديمنا لا يتجدد. إنا إذ نذكرك نذكر عبوديتنا بقيام معناك عبدا لمولاك، لا نتعدد معك، ولا نتعدد مع ربك، ولا يتعدد ربك مع ربه، ومهما طالت بنا العنعنة فلا تعدد للأرباب مع الله، ولا للآلهة مع الإله. إنهم حقائقه وأقداسه ووجوهه. إنهم أياديه ورسله. إنهم رحمته وعباده. إنهم روحه، ونوره، ووجوده، وعلمه، وعوالمه، ورشاده.

بك عرفنا أنفسنا، فعرفنا الله لا إله إلا الله، وبالله عرفنا أنفسنا، فعرفناك ربا لنا، وعرفنا الله أكبر، يجمعنا عبادا له، يا شرف عبوديتنا وشرف العبودية لله، يا آلاء الله على اجتماع وعلى غير انقضاء، يا رحمة الله تعم البقاع، وتملأ الأسماع، وتصل بلطيفها الأنظار، وتمتد في الذوات، وتقوم الجوارح، وتحيي القلوب، وتحرر العقول، وتزكي النفوس، يا من هو كل شيء لنا، ويا من جعل منا كل شيء له...

اللهم حقق له فينا ما يرجو، وحقق لنا به ما نرجو، فأشهدنا به أن لا إله إلا الله، وأشهدنا بك محمدا رسول الله.

عباد الله.. اتقوا الله، واعلموه معكم، فانعكسوا في نفوسكم لتلاقوه، فينعكس وجهه منكم على كل ما تشهدوه، وعلى كل ما تسمعوه، وعلى كل ما تلمسوه، وعلى كل ما تشموه، وعلى كل ما تعقلوه.

عباد الله.. إن جديدا لقديم من الرحمة، وجديدا لقديم من الحكمة، وجديدا لقديم من الأمر، وجديدا لقديم من رسالة الله، وجديدا لقديم من رسول الله، يوشك أن يبزغ شمس شهوده، وطلعة وجوده، ويد قدرته. ها هي الأحداث ترهص له، ها هي الأرض توشك أن تتمتع بسلام، وها هو الإنسان عليها يوشك أن يتواجد بقيام، فيشهد الإنسان فيه الحق في نفسه، ويجد من أوجده في وجوده. ها هو دين الفطرة يتجدد بكم على أرضكم مرة أخرى، وقد كان غريبا عليكم. ها هو يتواجد حبيبا إليكم، فهلا في الله هممتم، ولقبلة الصلاة استقبلتم، ولصفاء القلوب والنفوس أعيانكم هيأتم، ولتحرر العقول في انطلاقة إلى المعقول، بقيام العقول، استعددتم! ها نحن في ليل من قيام، قارب فجرا لسلام، نحلم فيه بضحى يوم مشمس، وشمس مشرقة، وحق أبلج مبلج، برسول الله، بعبد الله، بوجه الحق من الله.

تهيؤوا لهذا اليوم راغبين، من الفصل فيه واجفين، يوم تأتي آيات ربك لا ينفع نفس إيمانها، لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيرا. توادوا، تحابوا، اجعلوا من وجوه المؤمنين بينكم مرايا لوجوهكم، اطلبوا الحكمة من أي مصدر ظهرت، ومن أي نبع قامت، من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال، يحكم الناس فيه على أنفسهم بالكفر أو بالرشاد، بالإيمان أو بالعناد، ثم يُنظَرون، ولا حق لهم في التخلص مما تكشف لهم عنهم إلا في جولة أخرى، بعيد ميعادها، مديد يومها، قاس ليلها. ها أنتم والحق أبلج بروح الله بينكم فما حرصتم على الحرص عليه، وما تكنزتم بالإيمان في أنفسكم عن امتداد يد البطش إليكم، إن بطش ربك لشديد، إنه هو الذي يبدئ ويعيد، وكم بدأ وكم أعاد بالحكمة وبالرشاد، والناس في غفلة بعناد. ها هو يجدد أمره، وتجدد السماء خبره، ولكن ما زال الناس في عنادهم، وما زالت عقولهم في قصورها، وما زالت نفوسهم في التوائها. نسأل الله الرحمة لنا ولهم، والعفو لنا ولهم، والمغفرة لنا ولهم، والهداية لنا ولهم، والرشاد لنا ولهم، والرحمة لنا ولهم، إنه بذلك جدير وعليه قدير، وله يرتضي، ولنا مجيب بوسيلتنا إليه بعبده ورسوله، من عرفناه محمدا، وآمناه الحق رشادا وحكمة، لا إله إلا الله، ولا معبود سواه.

أضواء على الطريق

(نحن أمام وقفة وسوف نمسك بالخيوط حالا، وسوف أنظر للأمام بشغف زائد للوقت الذي نتقابل فيه كلنا مرة أخرى، وإن كانت روحي لا تفارقكم أبدا. إذا اعترضت طريقكم الظلال أو وقعت عليكم المتاعب، إذا تحرك الشك في عقولكم، ووجدت الحيرة مسكنا في داخلكم تذكروا أن هذه ليست حقائق، أعطوها أجنحة وأطلقوها بسرعة لتطير).

من هدي السيد (سلفربرش)

مصادر التوثيق والتحقيق

١ سورة الفتح - ٢٩